ثالثا–نماذج نقدية من العصر الأموي :

يطلق العصر الأموي على الفترة التي تبدأ بخلافة معاوية سنة 41 هـ ، وتنتهي بغلبة العباسيين على بني أمية وانتزاعهم الخلافة منهم سنة 132 هـ .

لقد شهد النقد في العصر الأموي ازدهارا كبيرا ، حيث خطا خطوات بارزة نحو التطور والارتقاء ، وهذا بسبب وجود مجموعة من العوامل التي ساعدت على ازدهار النقد ، ومنها استقرار العرب في الأقطار المفتوحة وتأثرهم بالحضارات الأجنبية ، واهتمام الخلفاء الأمويين بالشعر والنقد وممارستهم له وتشجيعهم عليه ، وخاصة في بلاد الشام مقر الخلافة الأموية ، كما أن الصراع السياسي الذي اشتعلت نيراه في ذلك العصر كان عاملا من العوامل التي أذكت روح الادب و أثرت في موصوعاته وأدت إلى بروز حركة نقدية متطورة .

هذا بالإضافة إلى عامل آخر لا يقل أهمية عن العوامل السابقة وهو بروز العصبية القبلية بشكل واضح ، مما قوى الخصومة بين الشعراء و أشعل بينهم نيران الهجاء ، كما أدى سوق المربد دورا كبيرا في تنشيط حركة الشعر والنقد في العراق في ذلك العصر ، والذي كانت أهميته لا تقل عن أهمية سوق عكاظ في الجاهلية .

وقد نما النقد في العصر الأموي وازدهر في بيئات ثلاث هي : الحجاز والعراق والشام ، وقد تلون في كل بيئة بلون الحياة والظروف الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بكل بيئة ، لأن الأدب انعكاس للواقع ، وباختلاف ظروف كل بيئة اختلف الشعر ، فأدى ذلك إلى اختلاف النقد بين هذه البئات.

1– النقد في مدرسة الحجاز :

وهي مدرسة الغزل وكان النقد فيها مطبوعاً بطابع الذوق الفني والرقة، والروح الإنسانية ، تبعاً لأدب هذه البيئة الذي شاع فيه ما شاع فيها من رقة وخفة وظرف، وتذوق رفيع للجمال وأساليب القول .

يقول الأستاذ أحمد أمين وهو بصدد حديثه عن الحجاز في العصر الأموي أنه نشأ فيه أدب رقيق يتفق وروح العصر، فيه دعابة وفيه وصف للنساء صريح، وفيه قصص لأحداث الشعراء مع النساء ،هذا الأدب الجديد في هذه البيئة اللاهية استتبع كذلك رقياً في النقد يدل على رقي في الذوق ،والنقد في هذه المدرسة غالبا ما اتجه إلى المعاني التي وعاها النص، والتي كان الناقد يعرضها على ذوقه الحضري، فيقبل منها ما يراه موائما لهذا الذوق، وما هو أليق لعاطفة الحب وأنسب لفن الغزل.

وقد اشتهر نقد أصحاب هذه المدرسة بنقد الذواقين تارة وبنقد الشعراء تارة أخرى، والمراد بالذواقين جماعة النقاد الذين اشتهروا بتذوق الشعر وتدارسه وتقويمه وإبداء رأي فيه وإن لم ينظموه ويتفرغوا له، والمراد بنقد الشعراء جماعة النقاد الذين نقدوا الشعر وهم شعراء وصدر نقدهم عن تجربة شعورية، وجمع نقدهم بين النظرية والتطبيق، ومن أشهر النقاد الذواقين في هذه المدرسة ابن أبي عتيق .

أما عن ابن أبي عتيق فقد كان له تميز ظاهر بين نقاد العصر الأموي، فإذا ما كانت الكثرة الغالبة منهم تنقد الشعر حين تتاح لهم فرصة نقده فقد كان ابن أبي عتيق يخلق هذه الفرصة ويعطي الشعر ونقده نفسه ووقعته ما قد يتيح لقائل أن يقول: إنه جعل ذلك شغله، وتكلم فيه بما يصلح أن يكون أسسا وأصولا ومقاييس في نقد الأدب.

فمثلا نراه يقدم عمرو بن أبي ربيعة ويؤثر شعره ، ويفضله على غيره من شعراء مذهبه الغزلي، ويقول "لشعر ابن أبي ربيعة نوطة بالقلب ، وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر غيره . وما عصى الله جل ذكره بشعر أكثر مما عصى بشعر عمرو بن أبي ربيعة، فخذ عني ما أصف لك : أشعر الناس من دق معناه ، ولطف مدخله ، وسهل مخرجه ، ومتن حشوه ، وتعطفت حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعرب عن حاجته.

فهذا لون من الملاحظات النقدية والمقاييس الأدبية التي رآها وعرضها ابن أبي عتيق للشعر الجيد والشاعر البارع ، وهي مقاييس هامة، تكشف عن تطور الوعي النقدي وتقدمه ، وقد صار لها شأنها في مجال النقد ، وكانت درجة أرقى عليها النقد الأدبي في طريق الموضوعية والأسس العلمية.

وأهم الأصول النقدية التي ينبغي مراعاتها في صناعة الشعر ونقده في كلام ابن عتيق السابق هي :

– أثر الشعر في النفوس وتأثيره في القلوب وعلوقه بها وإدراك الحاجة به .

– الشعر الجيد ما أثر في نفس سامعيه حتى يحسوا بما أحس به صاحبه .

– الشاعر المجيد هو من ينقل مشاعره الى غيره نقلاً أميناً عن طريق افتتانه في تصوير عواطفه وتفننه في إبداع تجربته.

– مخالفة شعر ابن أبي ربيعة لمبادئ الدين والخلق لم تقلل من جماله الفني باعتباره شعراً تجمعت فيه خصائص الشعر الجيد – فيما رآه .

– أبان الناقد في الجزء الأخير من النص عن المقاييس الفنية التي يحتكم إليها عند المفاضلة بين الشعراء وهي فيما رأى:

دقة المعنى ، ورقة اللفظ ولطفه ، وسهولة المخرج بمعنى : حسن التخلص في الانتقال من غرض الى غرض ومتانة الحشو أي : ترابط النص وتماسك أجزائه . وهذه المقاييس النقدية لا يستهان بها في مثل ذلك العصر .

فالرؤية النقدية للشعر عند أبي عتيق فن مبعثه ومنبته الذوق، غايته التكيف مع العمل الفني وإدراك معطياته الحضارية والجمالية، وهي فن المتعة والتذوق والتأثير، وهذا أسمى ما وصل إليه النقد الحديث.

وبهذا يكون قول ابن أبي عتيق قد شمل العمل الفني من جوانبه حيث ألمح إلى الجانب النفسي في شقه الأول ، وأدرك الجوانب الحيوية للعمل في شقه الثاني، وقد روي أنه اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية نصيب وراوية كثير وراوية جميل وراوية الأحوص، فادعى كل منهم أن صاحبه أشعر.

ومن النقاد الشعراء الذين جمعوا بين قول الشعر وتذوقه كثير وهو من أصحاب الغزل العفيف في بدو الحجاز ، وقداجتمع بعمر بن أبي ربيعة شاعر مكة الحضري، من أصحاب الغزل المادي الصريح، ووجه إليه النقد على قوله:

قالت لها أختها تعاتبها لا تفسدن الطواف في عمر

قومي تصدي له لأبصره ثم اغمزيه يا أخت في خفر

قالت لها: قم غمزته فأبى ثم اسبطرت تشد في أثري

يوجه كثير النقد لعمر بن أبي ربيعة على هذه الأبيات قائلاً:

(أهكذا يقال للمرأة؟ إنما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة).

وذوق كثير الذي تربى على الشعر العربي، وعلى الغزل العربي، وعرف ما تستحسنه العرب في المرأة وما تستقبحه ، وما ينبغي أن توصف به الحرة هو الذي حمله على هذا النقد، ما يزال ذوق العربي حتى عصرنا الحاضر يستحسن أن توصف المرأة بالحياة والإباء والخجل والامتناع، ولا يستسيغ أن تكون المرأة طالبة تغازل الرجل وتنشط في التصدي له، أما هو فيأبى ويجري أمامها.

وكثير فيما عابه على عمر بن أبي ربيعة يعتمد على ذوق العربي الذي يأبى أن تصور المرأة إلا متسمة بالحياء والتمتع وما إلى ذلك من صفات المثالية.

2- **النقد في مدرسة الشام :**

وهي مدرسة المدح ، وحوله قامت حركة نقدية في قصور الخلفاء وأنديتهم، كتلك التي قامت في الحجاز حول الغزل، والنقد هنا كما في الحجاز يعتمد على الذوق الفطري المصقول بطول النظر في الشعر، واستيعاب نماذجه، وتمثل طرائق العرب في التعبير والتصوير .

والنقد في هذه المدرسة غالباً ما اتجه الى تقييم الحركة الشعرية على ضوء اقترابها وابتعادها عن القيم الفنية الموروثة وبخاصة في شعر المدح .

وبهذا كان النقد ينحو منحى اتباعياً تأثرياً ، حيث جنح النقاد في كثير من نظراتهم النقدية أو لمحاتهم الذوقية التي أبدوها، إلى مدى ما ظفر به البيت أو الأبيات من اتباع للنماذج القديمة من حيث إصابة المعنى ودقة الوصف والتعبير عن الغرض.

وكان الخلفاء أنفسهم هم عمد هذه المدرسة ، وكان عبد الملك بن مروان على رأس خلفاء بني أمية في مجال النقد والمناقشة، وكان صاحب ذوق أدبي راق يقصده الشعراء بمدحهم فيدقق في معاني شعرهم بذوقه اللطيف وحسه الرهيف، الذي كان ينفذ الى أعماق النص يكشف عن جماله أو يبين رداءته.

ومن صور نقده ما رواه صاحب الموشح من أن الراعي النميري أنشده قصيدته التي منها قوله:

أ خليفة الرحمان إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيلا

فقال عبد الملك " ليس هذا شرح إسلام وقراءة آية".

ويفيد هذا التعليق أن عبد الملك لم يقبل من الشعر ما كان تقديراً لمسائل دينية أو خلقية فليس هذا وظيفة الشعر، وإنما هو: شعور وإحساس يعبر عنهما في بيان جميل ونغم بديع وتصوير مفتن، أما ما قاله الراعي فليس شعراً، لأنه لا عاطفة فيه ولا شعور وإنما هو تقرير لحقائق يعرفها العامة.

ومنها أن كثير أنشده مادحاً قوله:

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة أجاد السدى سردها وأذالها

يئود ضعيف القوم حمل قتيرها ويستنضلع القرم الأشم احتمالها.

فقال عبد الملك: قول الأعشى لقيس بن معد يكرب أحب الي من قولك، إذ يقول:

وإذا تجيء كتيبة ملمومة شهباء يخشى الزائدون نهالها

كنت المقدمة غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها

فقال: يا أمير المؤمنين: وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرق والتغرير، ووصفتك بالحزم والعزم، فأرضاه.

ومن الواضح أن كثيراً وصف عبد الملك بن مروان بأنه يحتاط لنفسه في الحرب بدليل أنه يلبس درعا حصينة محكمة الصنع يثقل حملها على الضعيف، والاحتياط من صفات ذوي الحزم والعزم والعقل وبعد النظر.

غير أن عبد الملك بن مروان –ولابد أنه لحزمه وعزمه وبعد نظره كان يدخل المعركة محتاطا لها– لا يرضى بهذا الوصف الذي يطابق واقعه، وإنما يريد من الشاعر أن يبالغ في شجاعته فيصوره محاربا باسلاً يتقدم جنوده، ويتحدى أعداءه ، غير حذر ولا محتاط إذ لا يرتدي درع الوقاية، ولا يتخفى عن القوم بل يعلمهم بمكانه ويمض يجندل الأبطال من أعدائه .

ومنها ما أورده صاحب الأمالي من أن كثير عزة دخل على عبد الملك بن مروان فقال له، أأنت كثير عزة؟ فقال: نعم، قال أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فقال: يا أمير المؤمنين، كل عند محله رحب الفناء، شامخ البناء، عالي السناء، ثم أنشأ يقول:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

ويعجبك الطرير إذا تراه فيخلف ظنك الرجل الطرير

بغاث الطير أطولها رقاباً ولم تطل البزاة ولا الصقور

خشاش الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نزور

ضعاف الأسد أكثرها زئيراً وأصرمها اللواتي لا تزير

فقال عبد الملك: " لله دره، ما أفصح لسانه، وأضبط جنانه، وأطول عنانه، والله إني لأظنه كما وصف نفسه".

وإعجاب عبد الملك بأبيات كثير مرده إلى فصاحة الشاعر في تصوير معانيه وصدقه في وصف هذه المعاني وصفاً قوامه ترتيب الفكر وإجادة التعبير عنه.

ومنها ما روي أنه كان ذات ليلة في سمره مع أهل بيته وخاصته، فقال لهم: ليقل كل واحد منكم أحسن ما قيل في الشعر، وليفضل من رأى تفضيله فأنشدوه وفضلوا، فقال بعضهم: امرؤ القيس، وقال بعضهم، النابغة، وقال بعضهم: الأعشى، كلما فرغوا قال: أشعر هؤلاء والله عندي الذي يقول: ثم أنشد شعراً لمعن بن أوس من القصيدة التي مطلعها:

وذي رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمي عنه وهو ليس له حلم

يحاول رغمي لا يحاول غيره وكالموت عندي أن يحل به الرغم

فإن أعف عينا على قدي وليس له بالصفح عن ذنبه علم

صبرت على ما كان بيني وبينه وما تستوي حرب الأقارب والسلم

فهذه النماذج التي سقناها لعبد الملك بن مروان تدل على أنه كان أديبا ناقداً عالماً بما قاله الشعراء في المعاني المتنوعة قديماً وحديثاً، ذا بصر بمسالك الشعراء و طرائفهم في المدح، يعتمد على الذوق في إدراك أسرار الجمال ومعرفة مواطنه، وبهذا كان نقده نقد عليم بالأدب، خبير بأحوال النفوس، قادر على التعمق في فهم الشعر وتذوقه.

3- النقد في مدرسة العراق :

الشعر في هذه المدرسة يشابه الشعر الجاهلي في موضوعه وفحولته وأسلوبه، فالفخر بالأصول والعصبيات والصراع بين الشعراء خلف لنا شعر النقائض والأراجيز، واحتذاء النمط الجاهلي خلف لنا نوعاً من النقد يفاضل بين الشعراء ويوازن بين الأعمال الشعرية، ويميز بين طرائق التعبير على أساس من فحولة الأسلوب... ونمو الحركات السياسية، خلف لنا نوعاً من الشعر الذي يرفض التوجه للأمراء والتمسح بالملوك واستجداء المال بالمدح- كما في الشعر الخارجي- نمت الى جواره حركة نقدية مالت إلى تقييم الشعر على ضوء التزامه بالقيم الدينية والخلقية .

ولا ننسى أن بيئة العراق بيئة علمية ثقافية امتزجت فيها الأصول العربية والأصول الأجنبية ولذلك تأثرت هذه المدرسة بالمنهج العلمي الذي اعتمد فيه نقادها غالباً على قواعد النحو وأصول اللغة، ويقيسون الأدب بمقاييسها، ويحاولون أن يخضعوا الشعراء لها.

تلك هي مدرسة اللغويين في العراق التي غلب عليها الطابع اللغوي والنحوي، وإن لم تهمل الجوانب المعنوية والتعبيرية الأخرى.

ولم يكن هؤلاء العلماء النقاد من اللغويين والنحويين، على درجة واحدة في التزام المقياس العلمي، فالحق أن منهم من كان نقده يقوم أساسا على الأصول المقررة في اللغة والنحو والعروض، ومنهم من يميل الى الأصول الأدبية الفنية في التعبير والتصوير.

وهؤلاء العلماء قد أفادوا النقد الأدبي من جهات ثلاثة:

الأولى: إنه كانت لهم آراؤهم القيمة في نقد الشعر والحكم على الشعراء حكما يستند على بعض الأصول والأسس الموضوعية .

والثانية: إنهم جمعوا كل ما قاله الأدباء والنقاد قبلهم في الشعر والشعراء.

والثالثة: إنه يعزى إلى هؤلاء الفضل في رواية الخصومات التي قامت حول كبار الشعراء – فيما بعد– وذكر الحجج التي كان يوردها أنصار كل شاعر في تفضيله .

والنقد في هذه المدرسة قد اتجه اتجاهاً لغوياً، فاتجه إلى اللفظ من وجهته الإعرابية، ومن جهة الأوزان والقوافي، وتعمقوا كذلك فنقدوه من ناحية الصياغة والصناعة والثقافة، ثم زاد التعمق والفهم للشعر والشعراء فكان التذوق والمتعة ولذة الموسيقى والإحساس بألوان من الصياغة منها ما هو رقيق سهل، ومنها ما هو صعب متلو، وعرفوا أنواع المعاني الصائبة الفاسدة.

ومن أشعر نقاد هذه المدرسة : أبو عمرو بن العلاء والحضرمي وعنبسة الفيل، وحماد الراوية، وخلف الأحمر، والأصمعي، وأبو عبيدة والمفضل الضبي وغيرهم مما سنذكرهم أثناء النماذج التالية.

روى صاحب الموشح: أن عيسى بن عمر أخذ على النابغة الذبياني تورطه في قوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

حيث قال: صحته (ناقعاً) بالنصب على الحال.

ومثله تخطئة أبي عمرو بن العلاء ابن قيس الرقيات في بيته:

تبكيكم أسماء معولة وتقول ليلى وارزيئتيه

بقوله: كان ينبغي أن يقول: وارزيتاه، كما تقول: واعماه واخياه.

وكان أبو عبدالله الحضرمي النحوي شديد التعقب لشعر الفرزدق فنقده في بيته:

وعض زمان يا بن مروان لم يدع من الناس إلا مسحتا أو مجلف

بأنه عطف المرفوع وهو "مجلف" على المنصوب (مسحتا) .

وهذه النماذج ومثلها كثير في تراب النقاد والعلماء في ذلك العصر، قد انصبت على قواعد الإعراب في الأبيات، حيث عاتب فيها ما خرج على أصول تلك القواعد، التي وضعها العلماء بعد استقرائهم كلام العرب الخلص، وهو نقد نحوي، ويتمثل في تخطئة الشعراء في قواعد الإعراب.

ومما يتصل بنقد العلماء في ذلك العصر تناولهم الشعر من ناحية عناصر الشعر ومن ذلك: ما لاحظه يونس بن يونس بن حبيب من كثرة الإقواء في شعر جرير كقوله:

عرين من عرينة ليس منا برئت إلى عرينة من عرين

عرفنا جعفرا وبني عبيد وأنكرنا زعائف آخرين

فالنون " في عرين " مكسورة، وقد كسر من أجلها نون (آخرين) لمناسبة حركة الروي وصحتها الفتح.

ولم يتوقف نقد أصحاب هذه المدرسة عند الأصول الفنية التي تتصل بالنحو واللغة والعروض، بل تعداه الى الأصول الفنية التي تتصل بالأدب، ونورد نماذج من نقدهم يتبين من خلالها نظرتهم الى الأصول الفنية.

ذكر صاحب الموشح بسنده أن الأصمعي قال: قرأت على خلف شعر جرير– فلما بلغت قوله:

ويوم كأبهام القصاة محبب الى هواه غالب لي باطله

به الصيد الغرير ولم تكن كمن نبله محرومة وحبائله

فيالك يوماً خيره قبل شره تغيب واشيه وأقصر عاذله

فقال: ويله: وما ينفعه خبر يؤول الى شر؟ قلت له هكذا قرأته على أبي عمرو، فقال لي: صدقت وكذا قال جرير، وكان قليل التنقيح مشرد الألفاظ وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع، فقلت، فكيف يجب أن تقول؟ قال: الأجود له لو قال: فيالك يوما خيره دون شره، فأورده هكذا، فقد كانت الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء، فقلت: والله لا أرويه بعد هذا إلا هكذا".

فنقد خلف بيت جرير تناول عنصرين من عناصر الشعر هما، المعنى الذي تورط فيه جرير وجانب الصواب فيه، واللفظ الذي لم يحكم جرير صنعته وسبكه وهو نقد فني دقيق.

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول في شعر ذي الرمة: "إنما شعره نقط عروس: يضمحل عن قليل، وأبعار ظباء: لها مشم في أول شمها ثم تعود الى أرواح البعر.

فقد شبه شعر ذي الرمة بنقط العروس الذي يذهب بالغسل، وبأبعار الظباء التي لها رائحة مقبولة من أثر النبت الطيب الذي تأكله، ثم لا تلبث أن تزول، أي أن شعره حلو أول ما تسمعه، فإذا كررت إنشاده ضعف، بمعنى أنه غير عميق الأثر في النفس، وإنما هو كالشيء البراق يعطي دفعة واحدة كل ماله من رواء، وقد رأى الأصمعي في شعر ذي الرمة مثل هذا الرأي في قوله" إن شعر ذي الرمة حلو أول ما نسمعه فإذا كثر إنشاده ضعف، ولم يكن له حسن.

ومن هنا نرى أن أبا العلاء يهتدي من خلال حديثه عن ذي الرمة إلى أن حلاوة اللفظ وخلابة الصورة لا تكفيان وحدهما في الحكم بالجمال للشعر، بل لابد من أن تكمن فيه عناصر ذاتية يبقى بها جديدا على طول الإنشاد، وبهذا يجمع بين الشكل والمضمون في الصورة الشعرية.

وذكر أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال: كان عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم، يعارضها ولا يجري مجاريها، والعرب لا تزوي شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية، وكان نصرانيا من عباد الحيرة قد قرأ الكتب.

وقال الأصمعي: " كان عدي لا يحسن أن ينعت الخيل، وأخذ عليه قوله في صفة الفرس" فارها متتابعاً" وقال لا يقال للفرس " فاره " إنما يقال له " جواد " وعتيق".. الخ.

فعدى في نظر الأصمعي مقصر في وصف الخيل ، وحاول الأصمعي أن يدلل على نقده بالمثل الذي ذكره من كلام عدي.

وهناك نظرات نقدية كثيرة تتسم بالدقة والعمق أثرت على الأصمعي، ومن أهمها الصلة بين الشعر وبيئته الاجتماعية وذلك حينما نظر في شعر حسان بن ثابت ، وأنه في الاسلام أضعاف منه في الجاهلية، لأن الشعر قائم على الاهواء والشر، فإذا دخل في الخير ضعف، وكأن الشعر في رأي الأصمعي صدى للحياة الاجتماعية، فالأصمعي حرص على تدعيم الصلة بين شعر حسان والحياة الاجتماعية في عهديه .